وصايا أبي جعفر المنصور لابنه المهدي

دراسة وتحليل

اعداد دكتور / رمضان حسانين جاد المولى

الوصية في اللغة : اسم لما أوصيت به ، تقول أوصى الرجل ووصاه • عهد اليه ، ونقول أوصيت له واليه ، اذا جعلته وصيك ، وتواصى القوم ، أى أوصى بعضهم بعضا(١) •

وجعل الزمخشري استعمالها على هذا النحو من باب الاستعمال المجازى ، على حد قولك • أوصيك بتقوى الله ، ووصى بها ابراهيم بنيه ، ووصيتك بفلان أن تبره ، وبأرضى أن تعمرها • واستوص بفلان خيرا ، وذلك لأن الكلمة فى أصل وضعها اللغوى بمعنى « وصل »تقول « وصى الشيء بالشيء وصله به ، ووصى النبت : اتصل وكثر • وأرض واصية النبات • وواصى البلد البلد : واصله(٢) • وعليه ، فالمادة تدور حول العهد ، والاتصال والمواصلة ، وكما سنرى أن هذه المعانى لا تبعد كثيرا عن الوصية فى مفهومها الأدبى •

الوصية فى مفهومها الأدبى :

حاولت أن أجد تعريفا محددا للوصية فى مفهومها الأدبى عند من تحدثوا عن الوصية بوصفها فنا أدبيا • لكن هذا الفن كان قليل الحظ فلم أجد من اهتم بوضع تعريف دقيق له •

وقد حاولت أن أستخلص لها مفهوما من خلال لونها وخصائصها وسماتها ، فوجدت أنها قالب أدبى يعتمد على التعبير المتميز بالدقة

---

(١) لسان العرب مادة « وصى » طبعة دار المعارف •

(٢) أساس البلاغة ـ الزمخشري • ج٢ ط٣ الهيئة المصرية العامة سنة ١٩٨٥ مادة « وصى » ص ٥١٢ •

التركيز والعمق والشمول المستخلص من تجربة عاشها الموصى أو راقبها، أفادته خبرة وسعت آفاقه الفكرية ، وأرهفت احساسه بوجدانه موجهة الى شخص حميم عنده يريد له السلامة والسداد فى أى شأن من شئون الحيـاة •

الوصـية ـ مكانتها فى الأدب العربى :

عرف الأدب العربى هذا الشكل الفنى فيما عرف من فنون التعبير النثرى منذ الجاهلية • ذلك لأن هذا اللون • ناتج من نواتج النزوع الانسانى ، الذى يهتم بتقديم خبرته ، وعصارة تجربته ، الى من يعنيه أمرهم ، ويشغله شأنهم ـ سواء أكان شخصا أثيرا لدى الموصى ، أو طائفة يحرص على افادتها وتقويمها •

غير أن ما وصلنا من هذا الشكل الفنى منسوبا الى عرب الجاهلية، لا يمثل فى نظرى ما قيل فى هذا المجال ، وانما مثل ما وعته الذاكـرة العربية عبر الأجيال حتى عصور التدوين • وأن جانبا كبيرا من هـذا الفن قد سقط من تلك الذاكرة ، كما سقط غيره من الفنـون النثريـة الأخرى • وقد تمثل ذلك فيما قدمه الأبـاء أو الامهات من خبراتهـم الى الأبناء أو البنات على حد سواء ، فى مرض موتهم ، أو حين تتقدم بهم السن ، ويحسون بدنوا الأجل ، أو عندما يقـدم الابن أو البنت على أمر ، ويرى الأباء أو الأمهات ضرورة بثهـم خبراتهم وتقـديم تجربتهم اليهم يسترشدوا بأضوائها ، ويستفيدوا من خلاصتها ، فيكون ذلك عونا لهم فيما سوف يقدمون عليه ، وعاملا من عوامل سداد النظرة، وتصويب الاتجاه • والأمثلة على ذلك غير خافية ، وليس من منهج هذا البحث التعرض لها •

أما فى عصر صدر الاسلام فكانت الحاجة الى الوصية أكـثر ، ومثلت وصايا النبى ﷺ الى أصحابه ، ووصايا خلفائه من بعـده الى قوادهم وولاتهم جانبا غـير قليل من هذا الفن ، وفى العصر الأموى ،

اتسعت الحياة نسبيا ، وزادت حدة التيارات السياسية والمذهبية بعد أن آلت الأمويون أمر الخلافة الى ملك عضود يتوارثونه ، وكان طبيا أن يكون للوصية دور فى توجيه الاخوان والأعوان لما فيه من تعضيد اتجاه أو تأكيد سلطان ، ومع كل ما ذكرنا فلم يحظ هذا الفن بعناية الدارسين ، بل اكتفى أكثر المؤرخين والدارسين بالاشارة السريعة الى وجود هذا القالب الفنى ، دون العناية بدراسته دراسة تكون جديرة بالكشف عنه وتقويمه .

واذا كان هذا نصيب الوصية فيما قبل العصر العباسى فان نصيبها فيه أقل وذلك على الرغم من اتساع الحياة فى هذا العصر ، وتشعبها ، وما حفل به من حركات وتيارات واتجاهات ، وما صهرته العقلية العربية فى بوتقتها من حضارات الأمم الأخرى التى ترجمت ثقافاتها الى العربية ، مما عظم معه دور الوصية وزاد خطرها . ولكن نظرا لما حفل به العصر من رسائل وتوقيعات وكتابات انشائية وديوانية صرف النقاد همهم اليها ، غاضين الطرف عن النظر الى فن عربى أصيل فى نشأته ، وتوجهوا بكتاباتهم ومتابعاتهم الى فنون استحدثت وتأثرت بالانفتاح على حضارات الأمم الأخرى ، منصرفين بذلك عن الوصية الأدبية مكتفين بالاشارة العابرة اليها دون العناية بدراستها دراسة فنية مستقلة نضعها فى مكانها الحقيقى بين ألوان الفنون النثرية الأخرى ، مما جعلها أرضا خصبة للكشف والبحث ، وهو ما تطمح الى شىء منه هذه الدراسة المتواضعة .

ولمزيد من التكثيف تخيرت الدراسة ، وصايا الخليفة المنصور العباسى الى ابنه الخليفة المهدى لتحليلها بوصفها نماذج راقية للوصية فى هذا العصر .

وكان من وراء اختيارى وصايا الخليفة المنصور العباسى لابنه ـ أسباب ودوافع : ـ

أولهـا ـ أن الخليفة المنصور يعد المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس ، بعد أن ورث عن أخيه السفاح تركة مثقلة ، تمثل فى دولـة يراد تثبيت أركانها وتدعيم أواصر ملكها ، فى ظروف تاريخية حرجة(٣)، فأبو مسلم الخرسانى يستفحل خطره ، وثورات العلويين لا تهـدأ ، وحجم المنغصات فى تفاقم مستمر ، فهذه طائفة « الراوندية » القائلين بالتناسخ ، وبعدها ثورات الخرسانيين وخروجهم على طاعته مما عظم معه الخطب ، واستفحل الشر ، وهـكذا يحـاول تهدئة الأمور بقتـل أبى مسلم الخرسانى ، ثم دحر «الراوندية» ثم بث الفرقة بين صفوف العلويين والعباسين حتى يستقيم له الأمر ، ثم الدخول فى معركة كبيرة مع الخرسانيين ، ولعل هذه هى أبرز القلاقل التى واجهت الخليفة المنصور العباسى ، الذى لم تدعه حركات المناوءة والانفصال يركن الى الراحة ، أو ينعم بالهدوء(٤) ، اضافة الى ما يصحب تأسيس دولة من مشـكلات سياسية ، ومعوقات ادارية ، استطاع هذا الحاكم أن يتخطى كل هذه العقبات ويتجاوزها على الرغم من حجم التبعة وثقل المهمة ، رجـل هذا شأنه لا شك أنه شخصية فذة ، زادتها التجـارب والأحـداث المتلاحقة حنكة وحصافة ، وهذا يؤكـد أهمية وصاياه ، وما تحمـله من عمق هو خلاصة هذه التجارب وحصاد هذه المعاناة .

---

(٣) تفاصيل ذلك فى الأعلام للزركلى ط بيروت ح ص ١١٧ ، الكامل فى التاريخ لابن الأثير ـ دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩ جـ ٥ وما بعدها . تاريخ الرسل والملوك « الطبرى » د محمد أبو الفضل ابراهيم دار المعارف جـ ٩ ص ٣٩٢ وما بعدها ـ تاريخ الخلفاء ـ السيوطى تـ محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة سنة ١٩٩٢ ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٤) تفاصيل هذه القلاقل فى « الكامل فى التاريخ » مرجع سـابق ح ٥ ص ٤٦٨ وما بعدها .

وثانيها ــ أن المنصور العباسي صاحب هذه الوصـــايا ، كما وصفته الروايات وكما ستكشف عنه دراسة هذه الوصايا اديبا أريبـــا ، وضع فى البادية وحضر مجالس الخليل بن أحمـــد ويونس بن حبيب(٥) ، واتصل بحلقات العلم ، وجالس فيها أمثال « أزهر بن سعد الســـمان الباهلى ، وأبى بكر البصرى(٦) » وقد أوردت هذه الروايـــات أنـــه « نظر فى العلم ، وقرأ المذاهب وارتـــاض الأراء ، ووقف النحـــل ، وكتب الحديث .. »(٧) ولم يقف عند حـــد التعلم والمعرفـــة بـــل تخطى ذلك الى التأليف العلمى . ذكر الجاحظ أنه « كان مغرما فى علم الكلام ، ومكثرا من كتاب الآثـــار ، ولكـــلامه كتاب يدور فى أيـــدى الوراقين معروف عندهم »(٨) .

وكان لثقافته تلك اثر واضح بين الناس يدل عليه بيانه وشـــعره الذى أوردت الروايات بعضـــا منه يدل على تمكن وشـــاعرية مما دعا شبيبة بن شيبة التميمى الى القول بأنه كان « من أبين الناس وأفصحهم لسانا (٩) » ورجل هذا شأنه لا شك أن تكون وصاياه ، قطعا أدبيـــة تحمل عمق الفكر ، وجودة الصياغة من يجعل دراستها والنظر فيهـــا وتحليلها بوصفها عملا أدبيا أمرا يروق ويراد .

---

(٥) المنصور ــ عبثد الوهاب الجومرد بيروت سنة ١٩٥٥ ص ٦٠ .

(٦) المستطرف من كل فن مســـتظرف ــ محمد أحمد الأبشـــيهى القاهرة ١٩٥٢م ج ١ ص ١٢٦ .

(٧) روج الذهب ــ أبو الحسن المســـعودى ــ محمـــد محيى الدين عبد الحميد ح م . المكتبة التجارية القاهرة سنة ١٩٦٤ ح٠ع ص٣١٥ .

(٨) البيان والتبين ــ الجاحظ . د. عبد الســـلام هارون مكتبـــة الخانجى القاهرة ط ٤ ح ٣ ص ٣٦٧ .

(٩) المنصور ــ مرجع سابق ص ٦٠ .

ثالثها ــ أن المنصور ، قد خص بوصاياه تلك ابنه المهدى ، خليفته على كل هذه الانجازات ووريثه لكل هذه التبعات ، وابنه أحق الناس بشفقته ، وأولاهم بتوجيهه وعنايته ، فاذا أضفنا الى ذلك أنه خليفته بسلا وولاية ، وامتداده الطبعى ولدا ودولة ، ووريثه لكل هذه التركات والتبعات ، فلا شك أن مثل هذه الوصايا ، يصطفى فيها صاحبها خلاصة تجاربه ، ويكشف فيها عن كل ما عن له ، ومن هنا يكون عنصر الصدق واضحا جليا حتى يجعلها أتم نفعا ، وأكثر افادة • ووصايا كذلك تكشف أتم ما يكون الكشف عن صاحبها وعصرها والموجهة له ، فهى جديرة بالبحث والدراسة •

رابعها ــ أن هذه الوصايا تحمل الى جانب قيمتها التاريخية ، قيمتها الوثائقية ، اذ هى تعد وثيقة سياسية تترجم للحياة فى عصر المنصور ، وتكشف غوامض ما أغفلته الذاكرة التاريخية ، وتعطى صورة حقيقيه للحكم والسياسة ، والحياة فى كثير من شئونها ، وتبرز القدرات السياسية والعقلية والأدبية لصاحبها ، ومن ثم فدراستها تجعلنا نضع تصورا أقرب الى الصحة فى الحكم على العصر وصاحبه وتقويمها •

دوافع المنصور فى وصاياه :

اذا كانت الوصية تحمل خبرة الموصى ، وخلاصة تجاربه فى الحياة ، ليقدمها الى من يهمه أمرهم ، ويرجو سدادهم ، فان الدافع العام والأساسى لأية وصية ، ينبع من الحرص على من يوصى لهم ، أو ما يوصى به ، والخوف على فوات الفائدة فى أيهما •

غير أن اختلاف نوع الحرص ، ودرجة الخوف تختلف باختلاف نوع الوصية وطبيعة موضوعها وظروفها ، ونوع العلاقة بين الموصى ، والموصى له •

فاذا أخذنا ذلك فى الحسبان ، وحاولنا أن نستكشف دوافع

المنصور فى وصاياه لابنه المهدى ، وجدنا أن وصاياه ضرورة تتطلبها طبيعة الظرف الزمانى ،والمنعطف التاريخى وتفرضها طبيعة العلاقة بين المنصور وابنه •

فالمنصور كما أشرنا يترك دولة هى من أخص انجازاته ، وثمرة كفاحه ومثابرته قد استخدم لاقامتها وتأسيسها كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، وهو فى سبيل تثبيت أركانها وتدعيم ملكه لها ، قد خلف تركة ثقيلة وميراثا مشحونا بالتبعات •

فالأمويون موتورون ، يتوقون الى اعادة ملكهم ، والعلويون يرون فى الحكم حقا لا يكفون عن المطالبة به، والحركة الشعوبية تستفحل ، وتزداد ندى أصحابها الحفيظة والموجدة لاعادة فردوسهم المفقود • وكل هؤلاء أصحاب ثأر عند المنصور ؛ فالجيوش الخراسانية لا تنسى قائده « خازم بن خزيمة » الذى قتل منهم فوق السبعين ألفا وضرب أعناق أربعة عشر ألف أسير ، وفوق ذلك اطاح بحلم رادهم ، كانوا قد جهزوا له ثلثمائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل(١٠) ، وآثار الفتنة التى أوقعها المنصور بين العلويين والعباسيين ليخلوا له الجو باقية تطارده(١١) وعمه «عيسى بن موسى» الذى خلعه من ولاية العهد وولى مكانه المهدى ، خطرا يهدد المهدى فى مستقبل(١٢) الأيام ، حتى العلماء والفقهاء لم يفلتوا من سطوة يده ، فهو الذى ضرب أبا حنيفة رحمه الله على القضاء ، ثم سجنه ،

---

(١٠) الكامل فى التاريخ ـ ابن الأثير ـ مرجع سابق ص ٥٩١ • تاريخ الخلفاء السيوطى ـ مرجع سابق ٢٦٢ •

(١١) تاريخ الخلفاء السيوطى مرجع سابق ص ٢٦١ •

(١٢) المرجع السابق ص ٢٦١ كذلك •

هممات بعد أيـــام ، وقيل : انه قتله بالسم لكونه أفتى(١٣) بالخـــروج عليه ،وفى أواخر عهده أمر بحبس«سفيان الثورى» و «عبادبن بن كثير»، وتخوف الناس أن يقتلها المنصور اذا جاء مكة حاجا ، ولكن المنيـــة عاجلته قبل أن يصلها(١٤) .

وهكذا أعمل سيفه فى كل من حاول الخروج « فقتل خلقا كثـــيرا حتى استقام ملكه »(١٥) .

وملك بهذا الذى وصفناه ، ورجل عليه كل هذه الوترات ، فـــانه سيخلف لوريثه على الملك تبعات جساما ، فاذا أضـــفنا الى ذلـــك أن وريث هذا العرش شخص هو أقرب الناس له ، وأعزهم عليه ، فـــان حجم المخاوف على هذا العرش والابن تكون متزايدة ، ومنبع الحرص عليهما عميق ، وغائر .

ومن هنان فان دافعة الى الوصية حرص شديد ، وخوف قاتـــل ومن ثم فانه سيضمن وصاياه تلك كل خبرته السياسية ، وحنكتـــه القيادية ، وتجاربه الحياتية ، ولذا فان هذه الوصـــايا ســـوف تحمـــل حرصه وخوفه دون بتر أو مواربة ، وسوف تكشف لنا عن نفســـية الأب ورأيه فى ابنه ووجهة نظره تجاه الناس والحياة من حوله .

الأفكار الرئيسية فى وصايا المنصور لابنه :

تجمع وصايا المنصور كما رأينا . بين كونها وصية خليفة أو ملك الى ولى عهـــده ، ووصـــية والد لولده ، ووريثه على عرش أثير لديه

---

(١٣) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

(١٤) المرجع السابق ص ٢٦٢ .

(١٥) الأعلام ـ الزركلى ـ جـ ٤ ص ١١٧ مرجع سابق .

ومن هنا فان الخط العام الذى دارت حوله وصايا المنصور هى توجيه هذا الابن ، واعداده حتى يكون أهلا لهذا المكان ، وحتى يستطيع الحفاظ على هذا العرش ، غير أن الوصيه ظهر على سطحها وسداها وصية ملك الى ولى عهده ، وتبطن لحمتها وصية أب لابنه ، ومن هنا كان أسلوب ممارسة الحكم وسياسة الرعية فى ظل المعطيات التى أفرزها العصر ، ومدة حكم المنصور السابقة ، هى الصورة الظاهرة ، والصبغة التى اصطبغت بها ، هذه الوصايا ، ولكن استبطانها يكشف لنا عن مشاعر أب يخاف ويحنو ويخشى على هذا الابن ، يتجلى ذلك من خلال الوصايا الخاصة التى قد لا يهتم بها ملك وصى ولى عهده ، فهو يوزع وصيته بين الخوف على حدود الدولة الخارجية ، وأمن بلده الداخلى ، وسياسته للرعية والصبغة التى ينبغى أن يصطبغ بها ابنه الخليفة المستقبلى ، والصورة التى يجب أن يكون عليها حتى يكون حاكما محبوبا أقرب الى شعبه من أبيه ، كما لا تنس هذه الوصايا ، أن توصيه بذويه وأقربائه وأهل بيته واخوته ، وهكذا جمعت هذه الوصايا بين أمور عامة وأمور خاصة ، كلها تعين هذا الابن وتعمل على الابقاء على هذا العرش له .

فحين يوضح له الأساس الذى ينبغى أن يقوم عليه نظام الحكم لا ينس أن يوجهه الى الدين الاسلامى ، وشريعته وحدوده ، فهى منطلقاته وأركانه ... « احفظ يا بنى محمد ﷺ فى أمته .. وأقم الحدود ، ولا تعتد فيها فتبور ، فان الله لو علم شيئا أصلح لدينه وأزجر عن معاصيه من الحدود لأمر به فى كتابه »(١٦) وهو لا يفتأ يذكره بأن السلطان منوط به حماية الدين ، والحفاظ عنه « فالسلطان

---

(١٦) تاريخ الطبرى . مرجع سابق . الوصية ص١٠٥ ، ١٠٦ ج٨.

يا بنى حبل الله المتين ، وعروته الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه ، وصنه ، وذب عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، واقمع المارقين عنه » .

ولعله مما يحمد للمنصور أن كان الاستمساك بالدين ، والحتم من حلال شرع الله والحرص فى تطبيق حدوده ، هى الأطر التى ينبغى أن يبنى عليها ولى عهده أساس ملكه ، وهى فى ذات الوقت تحمل لهذا الحاكم الجديد الأمور التى من شأنها ألا تغضب رعية تعتز بدينها وتحتمى فى شرع ربها ، كما أنه يتحقق لهذا الحاكم فى ظلها الأمان اذا ما تحصن بها وتوفر له ما يحتاجه من حزم وعدالة لادارة شئون مملكته ومملكته . ومن ثم فعليه ألا يتجاوز ما أمر الله به حتى لا يجد الأعداء فيه مطعنا ، أو منفذا يؤلبون عليه رعيته ، وحتى يستقيم له الحكم ، ويستتب له الأمر « .. ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تشطط ، فان ذلك أقطع للشغب وأحسم للعدو ، وأنجع فى الدواء » (١٧) . وهو لا ينسى فى ظل الاستظلال بالحماية الدينية أن يحثه على ضرورة مقاومة الملحدين ومعاقبة المارقين ، ويجد فى حد الحرابة ملجأ ومتكأ ليفتح لابنه الباب لمكافحة كل ثورة ومناهضة أى خروج اذا كان لا يزال فى ذاكرتنا ما عجت به الدولة فى عهد والده من ثورات — ومحاولات للخروج على سلطان المنصور — وهكذا يفتح البات لابنه ليعاجل بالعقوبة كل من يحاول الخروج على سلطانه . « وأعلم انه من شدة غضب الله لسلطانه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادا ، مع ما ادخر له من العذاب العظيم ، فقال : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون

---

(١٧) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٩٢ — ٣٩٤ .

فى الأرض فسادا أن يقتلوا ، أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف او ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »(١٨) .

ومن هنا يستطرد فى توصيته قائلا « ... وأوقع بالملحدين فيه، واقمع المارقين عنه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم ، والمثلات بهم ... »

وقد حملت وصاياه كذلك ضرورة حماية الحدود ، والعمل على استتباب الأمن الداخلى وسياسته الرعية فى الشئون المختلفة وتوسيع المعاش لهم وقيامه بالأعمال الاصلاحية العامة ، ودفع ما يقع بهم من مضار . من ذلك ما جاء فى احدى وصاياه « واشحن الثغور ، واضبط الأطراف وأمن السبل وخص الواسطة ، ووسع المعاش ، وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم واصرف المكاره عنهم (١٩) .

ولا شك أن تلك رؤية حضارية فى الحكم تضع على كاهل الحاكم تبعات دولته وهموم رعيته .

ندرك ذلك جيدا اذا ما أضفنا الى ذلك ما يتعلق بهذ الجانب من وصية أخرى « وليتسع انصافك ، وينبسط عدلك ، ويؤمن ظلمك ... وأعط حظ المسلمين من أموالهم ، ووفر لهم فيأهم ، وتابع أعطياتهم عليهم ، وعجل بنفقاتهم اليهم سنة سنة وشهرا شهرا وعليك بعمارة

---

(١٨) من الوصية الواردة فى تاريخ الطبرى والسابق الاستشهاد بجزء منها ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ح ٨ .

(١٩) من الوصية السابقة تاريخ الطبرى ص ٢٠٥ وما بعدها ج٨ .

البلاد ، وبتخفيف الخراج واستصلح الناس بالسير الحسنة والسياسة الجميلة »(٢٠) .

وهكذا تكشف لنا هذه المبادىء عن مدى ما وصل اليه حكام المسلمين من عناية بشئون بلادهم الداخلية وتوافرهم على مشاكل الرعية ، وما تعانيه . وهذه القواعد والأسس العامة التى لم تغب عن وعى المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس هى قواعد صالحة لكل زمان ومكان وجديرة بالتطبيق فأى ملك هو فى حاجة الى تأمينه من هجمات الأعداء والمتربصين ، وهو كذلك يحتاج الى ما يحقق استتباب الأمن الداخلى من القيام بأمور الرعية ، وعمل الاصلاحات اللازمة للبلاد .

ويسوق المنصور لابنه كذلك أمورا عامة من شأنها أن تحفظ عليه ملكه ودولته وان بعض ما جاء فيها يكشف عن القلاقل التى أكسبت المنصور عدم الثقة فيمن حوله ، وعدم استتباب الأمن الكافى حتى انه ليخشى مغبة الخارجين عليه ، فينصحه باتخاذ العيون ويؤكد له على ضرورة قيامه على كل أمر بنفسه فان الدولة لازالت فى حاجة كبيرة الى استمرارية اليقظة المنصورية فيمن يليه على حكم البلاد يقول « ... جد فى احكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا ، فأولا ، واجتهد وشمر فيها ، وأعدد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، باشر الأمور بنفسك ولا تضجر ، ولا تكسل ، ولا تفشل ... » .

---

(٢٠) من الوصية الواردة فى تاريخ اليعقوبى والسابق الاستشهاد بجزء منها ح ٢ ص ٣٩٢ وما بعدها .

واستعمل حسن الظن بربك ، وأسىء الظن بعمالك وكتابك ، وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من يبت على بابك ، وسهل اذنك للناس ، وانظر فى أمر النزاع اليك ، ووكل بهم عينا غير نائمة ، ونفسا غير لاهية ، ولا تنم فان أباك نم ينم منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه غمض الا قلبه مستيقظ ... »(٢١) .

وهو كذلك لا ينسى أن يحصنه بوصايا غالية من شأنها أن ترفع من قيمة الحاكم أمام الرعية وتقربهم منه بمثل ما جاء فى وصيته ثالثة .

« .. يا بنى .. لا يصلح السلطان الا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته الا بالطاعة ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره (٢٢) .

« يا أبا عبد الله لا تجلس مجلس الا معك من .. أهل العلم » من يحدثك ومن أحب أن يحمد أحسن السيرة ، ومن أبغض الحمد أساءها ، وما أبغض الحمد أحد ، الا استذم ، وما استذم ، الا كره »(٢٣) .

« يا أبا عبد الله : ليس العاقل الذى يحتال للأمر الذى غشيه، بل العاقل الذى يحتال للأمر حتى لا يقع فيه »(٤٢) .

وهذه المعانى والحكم الغالية التى حملها هذا الجزء ، تدل على

---

(٢١) من الوصية السابقة فى تاريخ الطبرى ح٨ ص ١٠٥ وما بعدها .

(٢٢ ، ٢٣ ، ٢٣) من الوصية الواردة فى تاريخ الكامل لابن الأثير مجلد ٦ ص ٢٧ .

مدى اصطفاء الرجل أفكاره ليقدم خلاصتها النافعة المفيدة لهذا الابن •

واذا كان الخليفة المنصور : قد راعى فى وصاياه ، ما يخص آمن الحدود ، وعلاقة الحاكم برعيته فهو لا ينسى أن يوصيه بذويه وأقربائه، فقد جاء فى احدى وصاياه « وأوصيك بأهل بيتك ، أن تطهر كرامتهم ، وتقدمهم ، وتكثر الاحسان اليهم وتعظم أمرهم ، وتوطىء الناس أعقابهم ، وتوليهم المنابر ، فان عزك عزهم وذكرهم ذكرك •• » (٢٥) ووصيته بأهل بيته العباس ، نجد أنه قد راعى فيها أيضا جانب الحكم فهو لم يذكر أنه أرشده لذلك من باب صلة الرحم ، أو الوصية بالأهل ، وانما من باب تأليف القلوب حتى يحيطوا به ، ويلتفوا حوله ، مما يكون عونا له فى سلطانه ، ودعما لمركزه ، واستدامة لسطوته ودولته ولذا فهو انما يفعل ذلك من باب أن فى عزهم عزه وفى ذكرهم وارتفاع شأنهم ، ذكر وتعظيم لشأنه • ولعل ذلك يكون جابرا عما أوقعه أبوه بين بنى بيته من العباسيين وأبناء عمومته من العلويين ، مما يقربهم من ابنه فيحيطون به ويؤيدونه •

كما حملت وصاياه فوق هذه الأمور العامة أمورا خاصة من مثل ضمان دين والده لبيت المال ، وتقسيم ما آل اليه من تركات والده الذى حرص على ان يخص أخوته بشىء أكثر منه ، حتى لا يقع فى نفوسهم كره له ، ويكفيه هو عز الخلافة وسلطانها •

« •• فاذا بلغك أنى قديت ، وصار الأمر اليك ، فانظر فيه ، وعلى دين فأحب أن تقضيه وتضمنه ، قال : هو على يا أمير المؤمنين ، قال :

---

(٢٥) هذا الجزء من وصية أخرى وردت كاملة فى تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٢ وما بعدها وكذا فى « الكامل فى التاريخ لابن الأثير المجلد ٦ ص ١٨ وما بعدها •

فانه ثلثمائة ألف درهم ونيف ، ولست أستحلها من بيت مال المسلمين ، فاضمنها عنى ، وما يفضى اليك من الأمر أعظم منها قال : أفعل • هو على ، قال : وهذا القصر ليس هو لك ، هو لي ، وقصر بنيته بمالى ، فأحب أن تصير نصيبك منه ، لاخوتك الأصاغر ، قال : نعم ، قال : ورقيقى الخاصة هم لك فاجعله لهم ، فان ما تصير الى ما يغنيك عنهم ، ويهم الى ذلك أعظم الحاجة قال : أفعل قال : أما الضياع ، فلست أكلفك فيها هذا ، ولو فعلت كان أحب الى ، قال أفعل قال : سلم اليهم ما سألتك عن هذا وأنت معهم فى الضياع قال : والمتاع والثياب سلمه لهم ، قال : أفعل • قال : أحسن الله عليك الخلافة ولك الصنع ••• » (٢٦) •

وتتصافر وصايا الخليفة المنصور على تقديم الأمور التى يرى ضرورة تبصير ولى عهده وابنه بها ، ولا تكاد نجد اختلافا بين وصاياه فى تأكيد هذا المضمون اللهم الا وصيته الأخيرة التى كتبها فى مرض موته فهى وان اشتملت على جانب من أمور الحكم ورعاية الحقوق والحدود ، فانها قد ركزت على ضرورة تحقيق رضى الله عز وجل ، حتى وهى تتعرض لأخص شئون الملك ووضع اطار الحكم وسياسة الرعية ، فهى تنبهه كثيرا الى الجزاء الأخروى ، والعمل لما بعد الموت ، وتقدم له من النصائح والعظات ما هى كفيلة باعداد حاكم يرضى عنه الله ، ويقدم آخرته على دنياه ، وهو مالم نعرفه فى حياة المنصور ، أو فى وصاياه الأخرى لابنه المهدى •

فمنذ استهلالها وهى تؤكد على هذه المعانى « ••• ان أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله فى البلاد ، والعمل بطاعته فى العباد ، ويحذرك

---

(٢٦) من الوصية السابقة الواردة فى الكامل لابن الأثير جـ٦ ص٩٨ وما بعدها ، تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ١٠٢ وما بعدها •

الحسرة والندامة والفضيحة فى القيامة قبل حلول الموت ، وعاقبه الفوت حين تقول : رب لولا أخرتنى الى أجل قريب . هيهات : أين منك المهل ، وقد انقضى عنك الأجل ، وتقول رب أرجعنى أعمل صالحا . فحينئذ ينقطع عنك أهلك ، ويحل بك عملك ، فترى ما قدمته يداك ، وسعت فيه قدماك ونطق به لسانك ، واستركبت عليه جوارحك ، ولحظت له عينك ، وانطوى عليه غيك ، فتجزى عليه الجزاء الأوفى ان خيرا فخيرا ، وان شرا فشرا ... » (٢٧) .

ولعل الغرابة تزول حين نعلم أن هذه الوصية كتبها فى مرضه الأخير ، وقرئت على المهدى بعد وفاة المنصور ، فهى آخر وصاياه اليه ، ولا ريب فى أن احساسه بدنو أجله وقرب نهايته . جعل فكره الموت ، والجزاء الأخروى ، وطلب رضى الله عز وجل دون سواه . هى الأفكار التى اصطبغت بها هذه الوصية دون ما سبقها ولعل مرض الموت ، وما يصحبه من استعراض لصحيفة الأعمال ، جعله يتمثل وزر ما قدم منذ صحب تأسيس هذه الدولة من تجاوزات عديدة ، فكان خوفه على مستقبل ابنه من أن يتشابه بمستقبله دافعا على توجيهه لما هو أجدى من دنياه وأنفع ، وأخذت هذه الحالة الملابسة له ، والتى يحس فيها بوطأة ما اقترفت عاملا على اصطباغها بالصبغة الوعظية التى كما قلنا سيطرت على تلك الوصية بكاملها تقريبا ، حتى أثناء ارشاده الى كيفية سياسة الرعية ، وتدبير شئون الملك . يقول « ... ولتصدق الله نيتك وتعظم اليه شاقتك وليتسع انصافك ، وينبسط عدلك ... ويمضى الى القول ... وارغب الى الله عز وجل ، فى الجهاد والمحاماة عن دينه ، واهلاك

---

(٢٧) من الوصية الواردة فى تاريخ اليعقوبى ج٢ ص ٢٩٢ وما بعدها .

عدوه ، بما يفتح الله على المسلمين ، ويمكن لهم فى الدين ... » (٢٨) وعلى الرغم من اشتمالها على أمور تتعلق بالحكم والسياسة وشئون الحياة ...

الا أنها كما ذكرت فى اطار اعداد حاكم يرضى عنه الله ، ويقدم آخرته على دنياه ، ومن ثم فهى غير تلك الوصايا الأخرى التى كتبها فى صحته وسطوته وبريق السلطة والسلطات يلمع فى عينيه ، فوجدناه يرشد ابنه الى ما يحفظ عليه دولته ، حتى ليأمره باصطناع العيون ، وعدم الثقة فى الخاصة والمقربين بله غيرهم ، وأن يراقب كل أعماله بنفسه ، وأن يصل ليله بنهاره ، ولا ينسى أن يذكره بأن تلك كانت خطته فى حاجة ونهجه الذى سار عليه . « ... ولا تنم فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولا دخل عينه غمض الا قلبه مستيقظ ، هذه وصيتى اليك والله خليفتى عليك » (٢٩) .

ومع هذا فان الأفكار التى حملتها وصايا المنصور لابنه المهدى تنوعت لتشمل أمن البلاد وسياسة الرعية وعلاقته بذويه واخوته ، وهى أمور فى جملتها تعمل متضافرة على الحفاظ على ملكه وبقاء سلطانه ، وتأمين ابنه وولى عهده على القيام بمهام الملك ومتطلبات خلافته عليه .

ما تكشفه الوصايا من شخصيتى المنصور والمهدى

نستطيع القول بأن هذه الوصايا تكشف جوانب من شخصية المنصور لأنها فكره وتجربته التى يحرص على تقديمها بأمانة الى أعز الناس لديه وهى فى الوقت نفسه تلقى بالأضواء على شخصية المهدى ، وتقدمه من خلال رؤية أبيه له ، ذلك أن المنصور ، وهو يمحضه النصح

---

(٢٨) من الوصية الواردة فى تاريخ اليعقوبى ج٢ ص ٣٩٢ .

(٢٩) من الوصية الواردة فى تاريخ الطبرى ج٨ ص١٠٥ وما بعدها .

سوف يراعى الجوانب التى يرى عدم سداد رأى ابنه ، أو فعله فيها ، والأمور التى يرى أنها تغيب عنه ، ومن هنا فان هذه الوصايا تقدم لنا جوانب من شخصية الموصى وتلقى بأضوائها على شخصية الموصى له.

أهم ما تكشفه هذه الوصايا من شخصية المنصور :

قدمت الوصايا المنصور على أنه شخصية فذة ، يدرك أبعاد الأشياء من حوله ، ورجل موقف من الدرجة الأولى يلبس لكل حالة لبوسها ، فجاءت لتوكد ما وصف به المنصور من أنه « ... كان فحل بنى العباس هيبة وشجاعة وحزما ورأيا ، وجبروتا ، جماعا للمال ، تاركا اللهو واللعب ، كامل العقل ، جيد المشاركة فى العلم والأدب ، فقيه النفس ... الخ » (٣٠) .

فعرفناه من خلال وصاياه شخصية تتسم بالشدة والحزم اللذين لم يفارقاه وكافة ضروريين له لتثبيت ملكه وتدعيم سلطانه ، قد استطاع بهما أن يتغلب على ما واجهه من مشكلات مستعصية ، فاعتمد اعتمادا كبيرا على نفسه فى مباشرة كل الأمور ، واحتاط لها حتى مع أقرب أعوانه وعماله وأخذ نفسه بجادة الأمور ، ولعل النهج الذى وضحه لابنه فى هذا المجال والذى زيله بأنها خطته ونهجه يوضحان ذلك فى غير خفاء . « جد فى احكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا فأولا ، وجد وشمر فيها وأعدد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، باشر الأمور بنفسك ولا تضجر ، ولا تكسل ، ولا تفشل واستعمل حسن الظن بربك ، وأسىء الظن بعمالك وكتابك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من يبيت على بابك ، وسهل اذنك للناس ، وانظر فى أمر

---

(٣٠) تاريخ الخلفاء . مرجع سابق ص ٢٥٩ .

النزاع اليك ووكل بهم عينا غير نائمة ، ونفسا غير لاهية ، ولا تنم فان أياك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولا دخل عينه غمض الا قلبه مستيقظ » (٣١) وهو حاكم يعرف كيف يسوس شعبه بالروية والحكمة المتوازنة ، وكان عقله قائده الذى يبصره ويهديه فينعم النظر فيما يقدم اليه ، حتى يكون قراره مدروسا ، وأمره منضبطا محكما ، وقد عرف ذلك عنه حتى انه بعد وفاته وقف الربيع على قبره قائلا « رحمك الله يا أمير المؤمنين ، وغفر لك فقد كان لك حصى من العقل لا يطير به الجهل ، ولكنت ترى باطن الأمر بمرأة من الرأى كما ترى ظاهره » (٣٢) .

وهو يوجه ابنه الى ذلك « لا تبرمن أمرا حتى تفكر فيه فان فكرة العاقل مرآته التى تريه قبحه وحسنه » . ومن ثم فعليه أن يلتزم بالخط الاسلامى حتى لا يجد الخارجون عليه مطعنا فيه ، وذلك لأن « الخليفة لا يصحه الا التقوى والسلطان لا يصلحه الا الطاعة ، والرعية لا يصلحها الا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه » (١) وفى اطار هذه السياسة المتوازنة عليه ان يحسم أمره ، وأن يحزم قراره حتى لا يفلت الزمام من يده ، وأن ييسر ذلك متوازنا مع الخط الاسلامى ، فان أمر الرعية خطير وثورتها مهلكة ، ولا يقطع الطريق على المارقين الا أن يكون صوت الدين هو الحكم وسيف الشريعة هو القاص ، ومن هنا جاء فى وصيته ما يؤكد هذه الوجهه « فالسلطان يابنى حبل الله المتين وعروته الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه وحصنه وذب

---

(٣١) جزء من وصيته فى الطبرى جـ ٢ ص ١٠٥ وما بعدها .

(٣٢) زهر الآداب ـ الحصرى القيروانى د. على محمد البجاوى ط ٢ عيسى البابى الحلبى ص ١٠٨ .

عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، واقمع المارقين فيه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تشطط ، فان ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو وانجح فى الدواء » وهو حاكم يعرف أبعاد التبعة وجسامة المسئولية ، فعليه أن يحقق لهذه الدولة الكبيرة الأمن الخارجى والداخلى ، وأن يقدم من الاصلاحات ما من شأنه أن يأمن به غائله الرعية ، ويقوم بواجه تجاهها • ومن ثم لا يفوته أن يوصى ابنه بذلك فى اطار ما أخذ به نفسه « واضبط الأطراف وأمن السبل ، وخص الواسطة ، ووسع المعاش ، وسكن العامة ، وأدخل المرافق عليهم واصرف المكاره عنهم » (٣٣) •

وقدمته الرعايا شخصية حريصة بطبعها ، ولأن المال جزء أساس منمم للسلطان فكان الحرص عليه طابعه ، حتى أدى ذلك الى وصفه بالبخل والقول عنه بأنه « كان غاية فى الحرص والبخل فلقبوه « أبا الدوانيق » لمحاسبته العمال والصناع على الدوانيق والحبات (٣٤) هو مالا أرى وجها له ، وانما أرى فيه وجه الحرص على خزائن بيت المال وهو فى بداية عهد دولة جديدة عليه أن يحتاط لمستقبلها ، وهو فى هذا الاطار نراه يوصى ابنه بذلك معللا له بقوله « وأعد الأموال واخزنها ، واياك والتبذير ، فان النوائب غير مأمونه ..» (٣٥) •

---

(٣٣) جزء من الوصية الواردة فى تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ١٠٥ وما بعدها •

(٣٤) تاريخ الخلفاء مرجع سابق ص ٢٥٩ •

(٣٥) من الوصية الواردة فى تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ١٠٥ وما بعدها •

ويؤكد وجهة نظرنا حين يكرر لابنه « فانك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا » (٣٦) ولئن كشفت الوصايا عما ألمحنا اليه من جوانب شخصيته ، فانها من الوجهة الفنية قدمته لنا أديبا متمكنا من عبارته ممتلكا لغته ، دقيقا فى طرحه لأرائه ، وتصويره لأفكاره — كما سنوضح فيما بعد — مما يكشف لنا عن البعد الثقافى لهذه الشخصية ، ويؤكد صحة ما جاء عنه من أنه رضع فى البادية فاستقام لسانه ، واتصل بمجالس اللغويين والمحدثين والفقهاء مما ذكرناه آنفا ، ومما يؤكده قول الصولى أنه كان « ... أعلم الناس بالحديث والانساب مشهورا فى طلبه » (٣٧) وما نقله ابن عساكر من الأحاديث التى كان المنصور رجلا من رجالات السند فيها (٣٨) ، وهذه الاحاطة شبه الكامل بشئون البلاد وأمور الرعية ، وسياسة الدولة ، وما طرحه من أراء شملت الحديث عن الحدود الشرعية وموقف الحاكم منها واستشهاده المتكرر بآيات من القرآن فى مواضعها ، وأقواله التى خرجت فى صورة حكم هى نواتج لخبرته وتجربته ، ووصف الجاحظ له بأنه كان مقدما فى علم الكلام ومكثرا من كتاب الآثار .. » (٣٩) بل تخطى ذلك الى التأليف العلمى فله « كتاب يدور فى أيدى العراقين معروف عندهم » (٤٠) يؤكد ذلك ما ذكرناه ويكشف عن شمولية معارفه ، واتساع ثقافته وعلومه اركه .

---

(٣٦) من الوصية الواردة فى الكامل ج٦ ص ١٨ وبعدها الطبرى ج ٨ ص ١٠٢ .

(٣٧) تاريخ الخلفاء — مرجع سابق ص ٢٧ .

(٣٨) تاريخ بغداد — لابن عساكر ص ٥٣ وما بعدها .

(٣٩) البيان والتبيين — الجاحظ ج ٣ — د عبد السلام هارون مكتبة الخانجى ط ٤ ص ٣٦٧ .

ما تكشفه الوصايا من شخصية المهدى :

وإذا كشفت هذه الوصايا عن جوانب فى شخصية المنصور ، فقد كشفت كذلك عن جوانب من شخصية المهدى من خلال نظره أبيه له ، الذى حرص على تسديد ما يراه من خلل فى هذه الشخصية من خلال وصاياه ، وكثرة وصايا المنصور لابنه هذه الكثرة التى ناقت أى وصايا لأى من خلفاء بنى العباس لابنه ، ان دلت على خوف المنصور عليه ، فهى تدل كذلك على توجسه من مستقبله ، وعلى أن ما سيؤول اليه من أمر الخلافة أكبر منه ، من هنا جاء الحذر وكان الخوف الذى دفع المنصور الى الاكثار من اسداء نصحه ووصاياه اليه ، حتى انه فى أواخر أيامه ، لازمه بوصاياه « يفعل ذلك كل يوم من أيام مقامه بالغداة والعشى لا يفتر عن ذلك ولا يفترقان الا تحريكا .. » (٤١) ويذكر الرواة أن المنصور « كان له سفط فيه دفاتر علمه ، وعليه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحدا ، يصر مفتاحه فى كم قميصه » (٤٢) وقد دون فيه كل ما يعن له من أمر الملك ، فهو ذخيرة تجاربه التى سلمها لابنه قبل وفاته قائلا له « .. انظر فى هذا السفط فاحتفظ به ، فانه فيه علم أبائك ، ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة ، فان أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الأكبر ، فان أصبت فيه ما تريد ، والا فالثانى والثالث حتى بلغ سبعة ، فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فانك واجد فيها ما تريد ... » (٤٣) ولعل ما يؤكد وجهه نظرى من أن الخليفة المهدى كان من وجهة نظر أبيه غير أهل لتحمل هذه المسئولية ، أن أمور دنياه تشغله ، أنه فى هذه الوصية وهو يعطيه سفط تجاربه ، ثم يوصيه ببغداد والجند والمال ، وأهل بيته ، واخوته يزيل كل وصية منها بقوله

---

(٤٠) البيان والتبين مرجع سابق جـ ٣ ص ٣٦٧ .

(٤١ ، ٤٢) تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ١٠٢ .

(٤٣ ، ٤٤) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٠٢ .

« وما أظنك تفعل » (٤٥) ولا يفتأ المنصور من آن لآخر يشكك فى قدرة ابنه على هذا الأمر ، فقد قال للمهدى يوما • كما راية عندك ؟ قال : لا أدرى قال : هذا والله التضييع ، وأنت لأمر الخلافة أشد تضييعا ، ولكن قد جمعت لك مالا يضرك معه ، ما ضيعت ، فاتق الله فيما خولك » (٤٥) ومن هذا المنطلق لم يترك أمرا يستدعى توجيهه اليه ، مما قد يجلب خطرا مستقبليا الا نبهه اليه فقد روى أنه « لما حج المنصور فى السنة التى توفى فيها وشيعه المهدى ، قال له « يابنى انى قد جمعت لك من الأموال مالم يجمعه خليفة قبلى وبنيت لك مدينة — لم يكن فى الاسلام مثلها ، ولست أخاف عليك الا أحد رجلين: عيسى بن موسى، وعيسى بن زيد ، فأما عيسى بن موسى فقد أعطانى من العهود والمواثيق ما قبلته ، والله لو لم يكن الا أن يقول قولا لما خفته عليك ، فأخرجه من قلبك وأما عيسى بن زيد ، فأنفق هذه الأموال ، واقتل هؤلاء الموالى ، واهدم هذه المدينة حتى تظفر به ، ثم لا ألومك » (٤٦) •

هكذا فلئن كشفت الوصايا فى المنصور عن شخصية فذة ، فانها ألقت الأضواء على المهدى بوصفه رجلا تنقصه الحنكة والدراية ، ويتوجس من مستقبله ومستقبل البلاد معه •

السمات والخصائص الأسلوبية أوصايا المنصور :

بنظرة عامة الى ما عرضناه من وصايا أبى جعفر المنصور • يتضح لنا ارتكازها على أساليب التعبير الانشائى من أمر ونهى ، ونداء وسواها • ونقل الجملة الخبرية بشكل عام ، وهذا يتوافق مع طبيعة الوصية ، اذ هى نقل لخبرات ذوى التجربة الى من يحرص عليهم أو يهمه أمرهم فتتخذ من النصح المباشر طابعا لها ، والنصح اما أمر بشىء

---

(٤٥) الكامل — لابن الأثير مرجع سابق جـ ٦ ص ٢٧ •
(٤٦) من وصية له فى تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ١٠٦ •

فيه مصلحة ، أو نهى عن أمر فيه مضرة ، فالترغيب طابع الأول والتحذير مهمة الثانى ، ومن هنا فلا غرابة ولا غضاضة فى الاعتماد على العبارات الانشائية .

والارتكاز على أساليب الأمر والنهى والتحذير والاغراء ، ومعل أى مقطع من أية وصية يوقفنا على ذلك فى وضوح وجلاء من مثل « ... وأعد الرجال والكراع ... وإياك وتاخير عمل اليوم الى الغد .. باشر الأمور بنفسك ، ولا تضجر ولا تكسل ، ولا تفشل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وأسىء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ ... الخ » (٤٧) بل اننا واجدون فى بعض الجمل الخبرية التى وردت فى وصاياه أنها لم تتمحض للخبرية بل أتت تعليلا لأمر بشىء ، أو نهى عن غيره ، حاملة فى طياتها الاغراء والتحذير من ذلك « فاتق الله فيما أعهد اليك من أمور المسلمين بعدى ما يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجا ... وإياك والدم الحرام ، فانه حوب عند الله عظيم ، وعار فى الدنيا لازم مقيم ، الزم الحلال فان فيه من ثوابك فى الأجل وصلاحك فى العاجل ، وأقم الحدود ولا تعتد فيها فتبور ، فان الله لو علم أن شيئا أصلح لدينه ، وأزجر عن معاصيه من الحدود ، لأمر به فى كتابه ..»(٤٨)

وحتى لا يصادر على هذه الأوامر والنواهى بما جبلت عليه النفس البشرية ، من عدم استساغتها للأوامر والنواهى ، فان الموصى يعمد الى تخفيف حدة هذه الأوامر والنواهى بما يضيفه ويضفيه من وسائل تعبيرية تعين على ذلك منها ، هذه النداءات المتكررة التى تتخلل هذه الوصايا بلفظ « يابنى » بما يوحيه هذا النداء من الشفقة والحرص ،

---

(٤٧) من وصيته فى تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ١٠٥ وما بعدها .
(٤٨) من وصيته فى تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ١٠٥ وما بعدها .

وبما يشعر فيه الابن بالود ، والقرب ، وذلك حتى تجد وصاياه مدخلها الى نفس الابن ، الذى تحرص الوصية على تذكيره بأبوة الموصى له للتأكيد على حنوه عليه فى مواضع كثيرة من وصاياه • وللتدليل على ذلك نذكر « احفظ يابنى محمدا « ص » فى أمته ••• » (٤٩) « فالسلطان يابنى حبل الله المتين ••• » (٥٠) ، « يابنى ، انى قد جمعت لك من الأموال مالم يجمعه خليفة قبلى » (٥١) ، يابنى لا تبرم أمرا حتى تفكر فيه •• »(٥٢) ، ولا يفتأ يذكره بهذه الأبوة « ولا تتم فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ••• » (٥٣) •

ولا يفوت الموصى فى هذا الاطار ، من أن يشفع أوامره ونواهيه بالتعليل تارة والتدليل أخرى ، لأن ذكر العلة يريح النفس ، ويجعلها أدعى للقبول ، والاستدلال يعمق تأثيرها ، ويجعلها أكثر فعالية فى نفس المتلقى • من أمثلة ذلك قوله « ••• ان أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله فى البلاد ، والعمل بطاعته فى العباد ، ويحذرك الحسرة والندامة والفضيحة فى القيامة قبل حلول الموت وعاقبة الفوت • حين تقول : رب لولا أخرتنى الى أجل قريب •• هيهات : أين منك المهل ، وقد انقضى عنك الأجل ، وتقول : رب أرجعنى أعمل صالحا ، فحينئذ ينقطع عنك أهل ، ويحل بك عملك فترى ما قدمته يداك وسعت فيه قدماك ، ونطق به لسانك ، واستركبت

(٤٩ ، ٥٠) من وصيته فى تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ١٠٥ وما بعدها

(٥١) من وصية له وردت فى زهر الآداب جـ ١ ص ١٨٠ والكامل لابن الأثير جـ ٦ ص ٢٧ •

(٥٢) من وصية له فى تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ١٠٦ •

(٥٣) من وصية له فى تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ١٠٥ وما بعدها •

عليه جوارحك ، ولحظت له عينك ، وانطوى عليه غيبك ، فتجزى عليه الجزاء الأوفى ، ان شرا فشر ، وان خيرا فخيرا »(٥٤) وعلى هذا النحو جاء فى وصاياه « وأعد الأموال واخزنها ، فان النوائب غير مأمونه ، والحوادث غير مضمونة ... الخ » (٥٥) « لا تبرم أمرا حتى تفكر فيه فان فكر العاقل مرآته ، تريه حسنة وسيئة ، لا يصلح السلطان الا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته الا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبه ... الخ » (٥٦) وهكذا ، فان اتكاء الوصية على التعليل والتدليل — كما رأينا — قلل من اعتمادها على العبارات المجازية وجعلها معتمدة فى أفكارها على تقديم حقائق كونية ، أو استدلالات قرآنية ، وحولها الكثير من الحكم الناتجة عن التجارب الانسانية الحقيقية ، ومالت الى الترسل فى العبارة والعمق فى تقديم الفكرة ، وذكر العائد المرجو من أوامرها ونواهيها .

ولعل التطور الذى مس الأسلوب فى هذا العصر نجد ملامحه فى وصايا أبى جعفر المنصور فلم تعتمد على الفقرات القصيرة ، ولم ترتكن الى السجعات المفككة التى كانت سمة من سمات الوصية التى كانت سمة من سمات الوصية الجاهلية التى هى أم هذا الفن فى الأدب العربى ، بل زاوج فيها بين الفقرات القصيرة والطويلة حسب طبيعة الجملة المرادة ، فقصرت جملها حين ناسب ذلك طبيعة المعنى المراد ، وفى غالب هذه الجمل القصيرة تكون جميعها تخدم فكرة عامه مجملة من ذلك « واشحن الثغور ، واضبط الأطراف وأمن السبل وخص الواسطة ،

---

(٥٤) من وصية له فى تاريخ اليعقوبى جـ ٥ ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٥٥) من وصية له فى الطبرى جـ ٨ ص ١١٥ وما بعدها .

(٥٦) من وصية له فى الكامل جـ ٦ ص ٢٧ ، زهر الآداب جـ ١ ص ١٨٠ .

ووسع المعاش وسكن العامة ، وأدخل المرافق عليهم ، واصرف المكاره عنهم..»(٥٧) ومال الى البسط فيما يراد التعليل له من أحكام للخروج بالنتائج الاستدلالية المناسبة ، على نحو ما مر الاستشهاد به وهكذا فالاسترسال هنا ضرورة اقتضاها المقام ، وهو فى كل يحتفظ لعبارته مع رصانتها بأسلوبها الموجز،وجريانها على قانون الوضع اللغوى فلم نر استعمالا لضمائر الجمع فى كلام المتكلم أو خطاب الواحد مثلا . كما نجد عنده أحيانا ميلا الى التوكيد من مثل « من أحب أن يحمد أحسن السيرة،ومن أبغض الحمد أساءها،وما أبغض الحمد أحد الا استذم،وما استذم الا كره » (٥٨) . وهو كما رأيناه توليد محكم الفقر مطرد السياق مختلف العرض عميق الأثر .

وعلى الرغم من ميل العبارات الى الترسل ، فان ذلك لم يمنع أن تأتى فيها الصور على قلة ، وبعض العبارات المجازية فى ندرة . من مثل التشبيه الثانى «فان فكر العاقل مرآته تريه حسنة وسيئه» وكذلك هذه الصورة المستمدة من التراث الدينى الاسلامى ، وانتى اعتمد فى تكوينها على عبارات حقيقية وتعبيرات مجازية ، تضافرت لتخرج صورة مركبة استدعاها لموقف ، فعمقت المعنى العام المراد توصيله يقول « ... وكأنى بك ، وقد أوقفت بين يدى الجبار ، وخذلك الأنصار وأسلمك الأعوان،وقرنت بك الذنوب،وحل بك الوحل وقعد بك الفشل، وكلت حجتك ، وقلت حيلتك ، وأخذت منك الحقوق ، واقتاد منك الخارق فى يوم شديد هوله ، عظيم كربه تشخص فيه الأبصار

---

(٥٧) من وصية له فى تاريخ الطبرى ص ١٠٥ وما بعدها .

(٥٨) من وصية له فى الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٢٧ .

... الخ » (٥٩) كذلك جاء فى وصاياه بعض المقابلات التى اقتضاها السياق والتى لعبت دورها فى ابراز المعنى من ذلك قوله « وأعدد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل » .

وقوله « الزم الحلال فان فيه ثوابك فى الآجل : وصلاحك فى العاجل » (٦٠) .

وقوله « فتجزى الجزاء الأوفى ان خيرا فخيرا ، وان شرا فشرا » (٦١) .

كذلك ندت بقلة بعض السجعات العفوية غير المتكلفة والتى اقتضاها السياق التعبيرى كذلك من مثل قوله « ... ويحذرك الحسرة والندامة والفضيحة فى القيامة ، قبل حلول الموت ، وعاقبة الفوت ... » (٦٢) وقوله « فحينئذ ينقطع عنك أهلك ، ويحبس بك عملك ، فترى ما قدمته يداك ، وسعت فيه قدماك ، ونطق به لسانك ، واستركبت عليه جوارحك ، ولحظت له عينك ، وانطوى عليه غيبك ... الخ » (٦٣) ولاشك أن هذه السجعات وسيلة موسبقية تأثيرية أتت غير مستعملة أو متكلفة فكان لها أثرها من خلال وقعها فى أن تخلع على حديثه عن موقف ابنه يوم الحساب جلال الموقف وهيبة المقام .

---

(٥٩) من وصية له فى تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٣٩٢ وما بعدها .

(٦٠) من اصية له فى الطبرى ص ١٠٥ وما بعدها .

(٦١) من وصية له فى تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٣٩٢ وما بعدها .

(٦٢ ، ٦٣) من وصية له فى اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٩٢ وما بعدها .

وعباراته فى استرسالها لم تفقد ايجازها وعمقها اللذين كانا لهما دورهما فى تكثيف المعنى ٠

وما جاء فيها من عبارات مجازية ، أو وسائل تعبيرية أخرى انما أتت التوضيح والبيان ، وما حوته من قيمة جمالية انما أتت متصافرة ومتضامنة مع المعنى المراد،وقدمت لنا فكرا ناضجا وعبارات هى خلاصة هذه التجربة مالت أحيانا الى فلسفة ما حولها حتى تحولت بعض عباراتها الى حكم مستخلصة ، من مثل « لا يصلح السلطان الا بالتقوى ، ولا تصلح الرعية الا بالطاعة ، والا تعمر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ٠٠٠ » (٦٤) « ٠٠٠ ليس العاقل الذى يحتال للأمر الذى غشيه بل العاقل الذى يحتال للأمر حتى لا يقع فيه » (٦٥) ، كذلك اعتمدت وصاياه على بعض الاستشهادات القرآنية فى مواضعها ، وكانت دليلا لا يقبل النقض استعان به المنصور على تأكيد صحة رأيه ، ومن أمثلة ذلك « ٠٠٠ واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادا ، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم »(٦٦) ، فقال « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساد أن يقتلوا أو يصلبو ٠٠ الى آخر الآية »(٦٧) ، وقوله « ٠٠٠ ويحذرك الحسرة والندامة والفضيحة فى القيامة قبل حلول الموت ، وعاقبة الفوت »(٦٨) حين تقول : « رب لولا

(٦٤ ، ٦٥) من الوصية الواردة فى الكامل لابن الأثير مجلد ٦ ص ٢٧ ٠

(٦٦) من وصية فى تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ١٠٥ وما بعدها ٠

(٦٧) سورة التوبة آية ٠

(٦٨) من وصية له فى تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٣٩٢ وما بعدها ٠

آخرتنى الى أجل قريب »(٦٩) اقتباس قرآنى فى موضعه ، وقوله « فما عسيت أن يكون حالك يومئذ اذا خاصمك الخلق واستعصى عليك الحق اذا لا خاصة تنجيك ، ولا قرابة تحميك ، تطلب منه التباعة ، ولا تقبل فيه الشفاعة ، ويقضى فيه بالفصل(٧٠) : قال الله : « لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب »(٧١) .

والمنصور فى وصاياه التى طالت منها تمثل فيها وحدة فكرية متسلسلة بحيث أن كل فكرة تأخذ بعناق الأخرى وتسلم التى تليها ، مما أفصح عن شخصية منظمة فى أفكارها ، واعية لما تقول ، اذ قلما تتباعد هذه الأفكار وهى مع ذلك يجمعها اطار واحد . ويحويها نسق تعبيرى دقيق ، مما يقودنا الى القول باطمئنان انها خلت من العبارات المتكلفة والسياقات التعبيرية الموجة .

وهكذا قدمت هذه الوصايا صورة لمبدعها وعصرها فى اطار فكرى وخصائص أسلوبية وتعبيرية دلت على عمق فى الفكر وحصافة فى التعبير . والله أعلم .

د. رمضان حسانين جاد المولى

---

(٦٩) سورة المنافقون آية ١٠ .

(٧٠) من وصية فى تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٩٢ وما بعدها .

(٧١) سورة غافر آية ١٧ .